فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ،فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ،ووصل ملك الانكلتيز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ،وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقي فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة موئسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها

وقسم ينقلـون مايقطعـه ذلك القسـم ويلقونـه في البحر ، وقسـم يذبـون عنهم ويدافعـون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقـات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قـال: وهذا ابتـلاء لم يبتل بـه احد ولا يصبر عليـه جلد ، والسلطـان رحمه الله لايقطـع الـزحـف عنهـم والمضايقـة لهم على خنـادقهـم بنفسـه وخـواصـه وأولاد ه ليـلاً ونهاراً حتـى يشغلهـم عـن البلـد، وصـوبـوا منجنيقاتهم الى بـرج عين البقر ، وتواتـرت عليه أحجار المنجنيقـات ليلاً ونهاراً حتـى أثـرت فيـه الاثـر البين، وكلما ازدادوا في قتـال البلـد ازداد السلطـان في قتالهم، وكبـس خنادقهـم والهجوم عليـه ، ودام ذلك حتـى وصل ملك الانكلتيز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة مـن بيروت عظيمة هائلة مشحونـة بالآلات والمير والرجال والابطـال المقاتلة ، وكان السلطـان قد امر بتعبيتهـا في بيروت وتسييرها ، ووضـع فيها مـن المقاتلـة خلقا عظيما، حتى تـدخل الى البلد مـراغمة للعدو، وكـان عدة رجالها المقـاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترضها ملك الانكلتيـز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعـة، فاحتاطوا بها مـن جميع جوانبها واشتـدوا في قتالها ، وجرى القضـاء بأن وقـف الهواء فقاتلوهـا قتالا شديـدا وقتل مـن العدو عليهـا خلـق عظيم ، وأحـرقـوا على العـدو شـانيا كبيرا فيـه خلـق كثير فهلكوا عـن آخرهـم وتكاثـروا على أهل البطسـة، وكان مقـدمهم رجـلا جيدا شجـاعا مجربـا في الحرب اسمه يعقـوب من أهـل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهـم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلـم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة مـن جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتـلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من الآلات والمير ولم يظفر العدومنهـا بشيء أصلا، وتلقف العـدو بعض من كان فيهـا وأخذوه إلى الشواني مـن البحر ،وخلصـوه من الغرق ومثلـوا به

وأنفذوه إلى البلـد ليخبرهم بالواقعـة ، وحزن الناس لـذلك حزناً شـديداً والسلطـان يتلقى ذلـك بيـد الاحتسـاب في سبيل الله تعـالى والصبر على بلائه.

قال : وكان العدو المخذول قد صنع دبـابة عظيمة هائلة اربع طبقات الاولى من الخشب، والثانيـة من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحـاس ، وكانت تعلـو على السور ويركـب فيها المقاتلـة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهـم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانـوا قد قربـوها من السور بحيـث لم يبق بينها وبين السـور الا مقدار خمسة اذرع على مانشاهـد ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بـالنفط ليلا ونهارا حتى قـدر الله تعالى حـريقها ، واشتعال النـار فيها وظهـر لها ذؤابة نـار نحـو السماء واشتـدت، الأصوات بـالتكبير والتهليـل، ورأى النـاس ذلك جبرا لذلك الـوهن ، ومحواً لذلك الاثر ، ونعمة واينـاسا بعد يأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكـان ذلك تشميتـا لتلك العطسه ، ثـم جرى بعـد ذلك عدة وقعـات في هذا الشهر ، وهـو جمادى الأولى، وهجم المسلمـون خيم العـدو ونهبوهـا ، ووصـل رجل كبير مـن أهـل مازنـدان يـريد الغـزاة، فوصـل والحرب قائمـة فحمل حملـة استشهد فيهـا في تلك السـاعة ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلـد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينـالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفـة عليهم مـن حين قـدوم الانكلتيـز الملعون ، ثـم مـرض مرضـا شديـدا اشفى فيه على الهلاك ، وجـرح الافرنسيـس، ولايزيـدهم ذلك إلا إصراراً وعتـواً، وهرب الى السلطـان خادمـان ذكرا أنهما لاخـت ملـك الانكلتيز وأنهما كـانـا يكتمان إيمانهما ، فقبلهما السلطان وأكـرمهما ، وهرب أيضا المركيـس منهم إلى صور، وكان قد استشعـر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيبا مهيلا ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه، ويحولون الى قدامه ترابه، ويقربون الى قرب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويذبون، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل ا لجلد، لاتعمل فيه النار، ولايصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم، ورمي بكل جمرة ورجم، فما يزيد في كل يوم إلا قربا ، ومايجر في كل وقت الا خطبا أو حربا، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أ مره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ،غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ،ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لايحصر معدوده ، ولايصور في الدنيا وجوده، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة
فما يفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان مايقوله اول، وثالث مايقوله ثان، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ا ن تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات ،ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وآونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية،ولاتعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهمامن الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها،وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ،فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ،ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم،ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ،ويوقظونه ويقولون له بالاشارة : إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ،وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بما لاطائل تحته، منها ان ملك الانكلتيز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت ،وطلب ان يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ،ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عددكثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة ، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم ،وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه: ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر الى عكا وماحل بها من البلاء ومايجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولماهجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ان لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا ،وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ،وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبواغاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهويرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهويتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ، ورؤيت امراة عليها ملوطةخضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ،ولم يزل الحرب الى آخر الليل ،وضعفت نفوس أهل البلد ،وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لاتقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية ، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال:أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا،وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقي ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، واما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات،وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين:«لما عاين أصحابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم ،وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيمين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام،وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي:وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم،وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخوالمشطوب ولفيفهم، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار ، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته،وقاتل قتالا شديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامل البعيد، ولما عرف السلطان أنه لاسلامه، وأن عكا عدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم :خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة ، وسيروا الى جانب البحر ، وصادموا العدو بالقهر، وخلوا البلد بما فيه واتركوه بما يحويه، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب مايملكه، ولم يعلم ان التهاءه به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح ، ولم يصح ذلك في الليلة الثانية لمصير السر إلى العلانية . قال :ولو صح ذلك لنجح المقصد ولكن الفرنج اطلعوا على هذا السر، فحرسوا الجوانب والأبواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا إلى الملاعين وأخبراهم بجلية الحال،وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولة الطعن والضرب، وفيهم صاحب صيدا فطلب نجيب الدين العدل، وكان السلطان يعذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العدل مرارا في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمر على الصواب، وبذلنا لهم عكا على مافيها دون من فيها، وأنا نطلق لهم أسرى بعدد

العدة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح :ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال:لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركةعظيمة بحيث اعتقد ان ربها كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكر وا أنه— يعني الخارج صاحب صيدا —طليق السلطان ،فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال : ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها : إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحن فقد فات أمرنا،وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص،و اشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك،فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار، وألفا وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم ،وضمنوا للمركيس الملعون. —فانه كان قد استرضي وعاد— عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم ، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ،وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون ،وغشي الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ،وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذاالحظ على مقدار ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض اطراف البلد ، وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال :ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم ،وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلا ص المسلمين المأسورين في البلد ، وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان لسانه فإنه كان رجلا عاقلا مستنجزين ماوقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة مكرّمين وساروا إلى دمشق يبصرون الاسارى.

قال العماد :وخرج سيف الدين المشطوب ، وحسام الدين حسين باريك، وأخذا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدّم ذكرها.

قال:ولم نشعر إلّا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه،وأعطاف أعلامها مهزوزة ، وعمّ البلاء ، وتم العناء ، وعز العزاء وقنط الرجاء ، وحضرنا عند السلطان وهومغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم، فعزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فماذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقالهم ، ثم طلبوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خزانته بعد ماحصله ، وأحضر صليبهم المطلوب المسلوب ، وأتم شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ

وهوبالمغرب في الرسالة :«لقـد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفـا، قولا لايطرقه التسمح ، بـل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكـا افرنسيس وانكلتيز وملـوك آخرون في مراكب بحـرية وحمالة حملـوا فيها الخيول والخيـالة والمقاتلـة والآلة ،ووصلت كـل سفينة تحمل كل مدينة،واحـدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسـلاح اليه، والداخل بالميرة عليـه»ثم قال: «وأخذ البلـد على سلم كالحرب ،ودخله العـدو ولو لم يدخـل من البـاب دخل مـن النقب، ومـاوهنا لما أصـابه في سبيـل الله وماضعفنـا، ولا رجعنا ورا ءنـا ولا انصرفنا، بـل نحن بمكـاننا ننتظـر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجـزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طـرقهم ، وخيمنـا على مخنقهم، وأخـدنا بـأطراف خنـدقهم ، وأحوج مـاكنا الى النجدة البحـرية، والأساطيـل المغربيـة، فإن عاريتنـا به تـرد، وعـاديتنـا بها تشتـد، والامير يبلـغ مـابلغـه مـن خطـب الاسـلام وخطوبـه، ويقوم في البـلاغ يوم الجمعـة مقام خطيبـه ، ويعجل العـودة وقبلها الاجـابه، ويستصحب السهـم ويسبق ببشرى الاصابـه، ويشعر أن الرايـة قد رفعـت لنصر تقدّم بـه عرابـه، فإن لـلاسلام نظـرات الى الافق الغربي يقبلهـا ، وخطرات من اللطف الخفـي يقرّبها، ويكفي مـن حسن الظن أنها نظرة ردّت الهواء الشرقـي غربا، وخطرة أوهمت ان تلـك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العماد: وعـزم ملك الافـرنسيس على المسير الى بـلاده لأمر إختـل عليـه، فأخـذ قسما من الأسـارى وسلمهم إلى ا لمركيـس ووكله في قبـض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفـرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر مـن جـانـب البحـر ، وانتشروا بالمرج ووصلـوا الى الآبـار التـي حفـرهـا اليـزك،وتواقعـوا مع اليـزك وأمدهـم السلطان ففلـوا العدو وصرع منهـم خمسون فارسا.

قال القـاضي :وخرج خلـق عظيم ولم يزل السيـف فيهم حتـى دخلوا

خنادقهم ، قال :ولم تزل الرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الانكلتيز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرّغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماالتمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستمائة أسير، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ،ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال لهم السلطان :إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل اليكم في ترومكم الباقية، واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا :لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرّزين في الحادي والعشرين الانكلتيز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا الى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهدهم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم، وكان اليزك قد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ، ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا من المسلمين إلّا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعدّ للعمل في عمائرهم.

قال العماد: وطلب السلطان منهم أن يضمنهم الداوية في قبض المال،فقال الداوية : ماندخل في الضمان ، فاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهر من فحوى كلامهم الخلف، ثم ذكر قتل الاسارى ، قال: فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشك أن الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئذ في المال، وفرّق مجموعه في رجاء الرجال، وأعاد الاسارى إلى أربابها،واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكانه وأعاده الى صوانه لا لعزه بل لهوانه، فإنه لامصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه،وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا، وانفذوا بعد رسول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صادفوا سولا.

ومن كتاب عمادي عن السلطان في ذلك:« وللكرام آجال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحميات، وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام، ويتدارك ماحدث من الكسر والوهن، بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام، فأين ذوو الأنفة والحمية، والهمم العليه، والنفوس الأبية، أما يغتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم، أما يثورون لثأر

ايمانهم،أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم، فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الرّاقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون ، وكل أسير أتي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدّم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر ،والنواب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف ، وكان الامر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك ،وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر ، وعن يسارهم الرّمل، وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرّجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاوّل الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة،وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع ،وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنبيتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعـلاه والعدو يشرب من أسفلـه، ليس بيننا إلامسـافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم في الساقه، وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ، وتقدّمواعلى البركـة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهـم من ورائهم هو ومـن معه النهر ولم يـأخذوا مـن خلفهم الحذر، ففجأهـم وفجعهم ، وفرغ من شغلهـم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهـم وغنمهم ، ثم نهض الفرنـج اليه، وحملـوا عليه وجـرت وقعة شـديدة لحزب الضـلال مبيدة ، جلبـت لنـا غنيمة ، وعليهـم هـزيمـة، وأحضر الأسارى عنـد السلطـان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهـم بالأمس ألف، وسرى فيهم وهن وضعف.

ثم رحـل السلطان وعبر شعراء أرسـوف، ونزل على قـرية تعرف بـدير الراهب، وطلـب ملك الانكلتيز الاجتماع بالملك العادل خلـوة فاجتمعا، فاشار بالصلـح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننـا القتال ونحن جئنا في نصرة افرنـج الساحل، فاصطلحـوا انتم وهم وكـل منا يرجع إلى مكـانه، فقـال: على ماذا يكـون الصلح؟ قـال: على أن يسلم إلى أهـل الساحـل ماأخـذ منهم من البـلاد، فأبـى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلـك قتل كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يـوم السبـت رابـع عشر رمضـان كانـت وقعـة أرسـوف تـأهـب المسلمون للقائهم ، فأزعجوهم وأبلـوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو فيه مـن الضيقة احتموا وحملـوا حملة واحدة فانكشـف من كان قـدامهم، واندفعـوا وثبت ذلـك اليوم العـادل وأصحابـه وقايماز النجمـي، وعسكر الموصل ، ثم كـرت العساكر كرا إليهم، وجرت النـوائب عليهم ، فجرت بين الفئتين مقتلـة عظيمـة ، فلجـأوا إلى جـدران أرسـوف ،ولـولا ذلـك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم،وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلاّ سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتر، فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فارا ًيأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين ،وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه،وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعةمن الطائفتين ، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية:«سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال ،وما للقتال فيها مجال، وماوجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها، ومن جملة أيامنا المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية» فذكر الواقعة السابقة وفيها « أنه نفق ألف رأس»، ثم ذكر يوم أرسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس، ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلة، ورحل ليلا واصبح على يبنا وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنى، قال :وزرنا بيبنا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ،وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمد العماد في هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك ،وأما اهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ماذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العماد: ورحل السلطان ، ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على مابها، ووافقه الجماعة وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ، ولاسبيل الى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه، فاقتضت الآراء اقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القاضي: أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولى عليها الفرنج، وهي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وماجرى على من كان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شماليها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ومانام تلك الليلة إلّا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبد أ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله:والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال : ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد ،ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولايمكن من خرابها وأباح الناس الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وامر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدوبعمارة يافا ،وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشرا ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح،فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا ،وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها،فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم،فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق

البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجاعظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقض منها الابراج التي على ساحل البحر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسومها، وفض ختومها، وقبض ارواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزول السوء بسورها، فما برح السلطان منها حتى رأينا طلولها دوارس، ورسومها طوامس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس، قال: ولو حفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكنا، لكن وجد كلا له متجنبا، متجببا، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها إتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها، وفض سوارها، وسكانها كانوا في رفاهية ، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الاثمان ، وفجعوا بالأوطار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على يبنا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخريب كنيسة لدّ، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ،وتزوّج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكلتيز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ،وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار:«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين ، وماصدّق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها الى كل واحدة منهامسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف

وحـذار ، وكل واحـد من الموضعين يحتـاج في تحصينـه إلى ثلاثين ألـف مقاتل، وتعـذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلـدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدّو وتأمينه».

ثم رحل السلطـان إلى النطرون، وخيم على تل عـال، والنطرون حصن حصين كان للـداوية،لكن لما فتح تشعثـت أسواره،وانقض جداره، فـأمر بهدمـه فهدم، ثـم بعث ملـك الانكلتيز راغبـا في المصالحة والمسـالمة إلى العادل ، وزعـم أن له أختا عـزيزة عليـه، كبيرة القدر، وأنها كانـت زوجة ملـك كبير من ملـوكهم، وهـو صاحـب صقلية ، تـوفي عنها ورغـب أن يتزوجها العادل، ويجعـل له الحكم على بلاد الساحل ينفـذ أمره فيها،وهو يقطع الـداوية والاسبتـار من البلاد والقـرى دون الحصون ، وتكـون اخته مقيمة بـالقدس ومعها فيـه قسيسون ورهبان، حافظـة لها من آفة الـزمان، فـرأى العـادل في ذلـك عين الصـواب ، وشـاور السلطـان فـوافقـه فيما أجاب، فنفـذ الرسـول إلى الانكلتيز بالاجـابة ، فـدخل الفـرنج على المرأة وخوّفـوها، واتهموهـا في دينها وعنفوهـا،وقالـوا لها مامعناه: هـذه فضيحة فظيعـة، وسبـة شنيعـة، وقطـع على النصرانية وقطيعـة ، وأنـت عـاصيـة للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك ومـاأجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتهـا إلا ان يدخـل العادل في دينها، فعـرف أنها خديعـة كانـت من الانكلتيز .

قال القـاضي: ووصل رسـول من المركيس يـذكر أنـه يصالـح الاسلام بشرط أن يعطى صيـداوبيروت على أن يجاهر الفرنـج بالعـداوة ، ويقصد عكا ويحاصرهـا ويأخذها منهم، فـأجيب إلى ذلـك على أن يطلق مـن بها وبصور مـن الاسارى ، ولما سمـع الانكلتيز بذلـك رجع إلى عكـا لفسخ هذه المصالحة، واسترجـاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملـك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قال العماد : وكان محتقراً للعظائم ، مقترفا للمآثم واضعا للشرب والقصف والمواسم، وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل، ويتقدّم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال، وفصل أمر ، فأجاب السلطان بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ، ويعود الى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم إلى مظفر الدين حتى نحضره إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلت: وبلغني أن الفاضل رحمة الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:

ما كنت أوّل سار غره قمر
ورائد خدعته خضرة الدمن

مثل لنفسك شخصي انني رجل
مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

قال القاضي: وأرسل الانكلتيز إلى السلطان إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ماننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له، وهو عندنا

عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم، فارسل السلطان في جوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين،وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمن في ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا ، وكان أسيرا بها ،وكان ادّخر حبلا في مخدته فتدلى من طاقة في بيت الطهارة ، واشتد هربا في قيوده إلى تل العياضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليه النهار، ثم كسر قيوده وسار إلى المسلمين ، ثم تواتر الخبر أن الفرنج على عزم النهوض، فسار السلطان من المخيم بالنطرون إلى الرملة سابع شوّال،وأقام بهاعشرين يوما، فجرت وقعات ،تمت دفعات ،منها وقعة في ناحية يازور، وكان النصر فيها للمسلمين ، وفقد من المسلمين ثلاثة ،وذلك ثامن شوّال ، وفي سادس عشر شوّال وقعت وقعة أخرى عظيمة قتل فيهاجماعة من الامراء، وأسر فارسان من الكفرة معروفان بالبأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خامس شوّال وصل الخبر أن الاسطول المصري استولى على مراكب الفرنج ، ومنها مركب يعرف باسم المسطح قيل انه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ،وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون .

وفي ثامن عشر شوّال اجتمع الملك العادل والانكلتيز على طعام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبة ،وطلب منه الاجتماع بخدمةالسلطان فامتنع رحمه الله وقال: الملوك إذا اجتمعوا يقبح بينهم المخاصمة بعد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنيةالمقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ،وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسيق منهم الى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركواخيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدّة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرّملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ،ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أومافيهم لبيب على العلات يعتبر
كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انثروا

- ٨٨٢٦ -

كـــم قـــد سقيتهـــم ذلا فـــلا عجـــب
أن عـــربـــدوا سفهـــاً فـــالقـــوم قـــد سكـــروا
إن يممـــوك فـــلا بـــدع لجهلهـــم
تسعـــى إلى الاســـد في غـــابـــاتها الحمـــر
زاروا نمـــورا ولا تغنـــي وقـــاحتهـــم
إذا أســـــودك في أبطـــــالهم زأروا
فحـــام عـــن حـــوطـــة البيـــت المقـــدس لا
خـــوف وحـــاشـــاك مـــن خـــوف ولا ضرر
هـــو الشريـــف وقـــد نـــاداك معتصما
فما على مجده مـــن بعـــدهـــا حـــذر
وســـوف تستغفـــر الايـــام هفـــوتها
وتحصـــد الفئـــة الاوغـــاد مـــا بـــذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق،وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويدا، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميارفين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ،ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في تاريخ واحد،وكانا من أعظم الأعوان على مايكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية والاهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعمالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لمماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبه سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العماد: وكنت استنبته في كتابة الإنشاء وخرّجته ، وقلبته في مراتب المعالي ودرّجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم،وخواص الأمراء منهم والخدم ،وكان نبيلا نبيها كريما وجيها. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شانه كبر وهو كبير الشان، وفي أواخر هذه السنةتوفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها ،واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيبا له الى كل مايستدعيه، ويقضي له من الحوائج مايقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا، وأعطاه في بنائها ألوفا، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة من العلماءفردوا ، وشفع العادل في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ، فكتب بها له، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدّلت بالوحشة الأنسه.

قلت :ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال :وفيها توفي الوجيه بن النفيس مستوفي ديوان دمشق بها، وكان نبيها مهيبا نزها عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الدين أبوالقاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريما سخيا نابها سريا.

وفيها: نقلت تربة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام،وكان قاضي الموصل ، وقد بنى رباطا هناك ، وكانت وفاته بالموصل في الثامن والعشرين من جمادى الاولى سنةست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه:«سبب اصدارها الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريح اذن عمه محيي الدين من الموصل الى المدينة المقدّسة ، على ساكنها أفضل السلام ليدفن في الرباط الذي أنشأه حيث يبعث مع شفيع الامة يوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحد المحفور ، في جوار الضياء والنور ،ويحشر بما يناله من البركة والحبور ، منشرح الصدر(اذا بعثر مافي القبور * وحصل مافي الصدور)(١٢٨) ، ولقد وفق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعة المعظمة ». قا ل: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور، فضائله متجاوزة حد الوفور.

قال ابـن القادسي: ووصل الحاج في صفـر بعدمـا اعتاقت اخبـارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ مـا في الكعبة من أموال، وأخذ طـوقا كان يلزم الحجر الاسود فـأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخـل بعض الباطنية بعد سنـة أربعمائة فضربه بـدبوس ، وقـال: إلى كم حجـر، وفي يد ذلـك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطوع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فـأخذ الحجر وجمعت شظاياه، وألفـت وجعل له طوق، فأخـذ أمير مكةذلك الطـوق، فلما وصل أمير الحاج عـزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناهـا على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قـاسم بن محمد بن أبي هاشـم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتـوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهـو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قـال ابـن الاثير: وفي ربيع الأوّل سنـةسبـع وثمانين سـار عز الـديـن —يعنى صاحـب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرهـا وبها ابن اخيه معز الـدين سنجـر شاه، لأنه كـان سيء السيرة معه خارجـا عن طـاعته مسـاعدا لـلأعـداء عليه، فعـزم على أخـذها منـه فخضـع وطلب العفـو والصفح ، فأجابه وصالحة على قـاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى ،فتجاوز عنه واطرحه.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محدق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلبا قد حمل جبلا في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال :وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكلتيز دخاناعلى بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم،فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ،وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرّم كبس عز الدين جرديك يبنا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الاخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفا، وأعطاهم بالباقي رهائن ،فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبهما المركيس ،ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوبا الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين ،وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح :أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادرى أنه يتردّى ،وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين،ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ،وفيه روح : احملوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكلتيز فقتلا شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة،لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها،ورحلوا عنها واسروا من فيها،وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين ، فتمكنوا من نقب المكان واحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب —كذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شدّاد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى النطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرّت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرّسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذاكله والملكان العادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان، وسببه ماكان من تقي الدين وموته، وتشرط ولده في بقاء بلاد أبيه عليه، وان الافضل كان طلب من والده البلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلك البلدان ،ورحل من القدس في ثالث صفر، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى ماأصحبه برسم الخلع والتشريفات، ووصل الى حلب فاحتفل اخوه الظاهر لقدومه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلا ، وبعطف الابتهاج اليه مائلا، وأحضر له مفاتيح بلده، وقدّم له كل مافي يده ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه، ودفع منه الى ماازهجه وأزهقه، ووصل رسوله الى العادل وهو بالقدس لاجئا إلى ظله، راجياً لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فاحتمى له واحتمله،وقوّى في تقويته أمله، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه، وقال: أنا امضي إليه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ونعطيه في السنة الاخرى حماه والمعره، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن اقطاعاته بمصر، ونصف خاصه ،ففعل واستزاد قلعة جعبر، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر ، فسار العادل في العشر الأول من جمادى الأولى وكتب السلطان إلى الأفضل بالعود، فجاء هذا راجعا، وذهب ذلك مسارعا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القاضي ابن شدّاد :عاد الأفضل منكسرا متعتبا ، فوصل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليه وطلبه فما وسعه التأخر ، فسار إليه مع العساكر الواصلة اليه من الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قال ولما بلغ ابن تقي الدين موجدة السلطان ، أنفذ إلى العادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرها وسميساط ، وإما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة أخوته، فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شيء منه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل اخوته، وتخلى عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى وألح عليه فخرّق نسخة اليمين ، وانقطع الحديث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد اولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده، ثم إن العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ،وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينزل عن كل ماهو شامي الفرات ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصه بمصر بعد النزول عن خبزه ،وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد :وكان تقدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولماتحقق العدو أمر القفل، أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافية فبات ،ثم سار حتى اتى ماء يقال له الحسي، فأنفذ السلطان الى القافلة ينذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكلتيز الملعون مع العرب بجمع يسير ،وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله ،فكان الشجاع الايد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام :قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب،وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب، وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجمالهم وأحمالها وجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمع العدو ماأمكنه جمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الأموال،وكلف الجمالين خدمة الجمال، والخربندية خدمة البغال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ،وبعدوا عنها زمانا، ثم انكشف الأمر فعادوا ، وقد هرب جمع من الاسرى ، وكان الحاكي منهم، وأخبر أن الاسارى خمسمائة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوما عظيما عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراءوتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشرجمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدّو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذاالعدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمكم ،وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجل للكتاب)[١٢٩] وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصدّيتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله مايرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ماقال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه واطعمهم ،ثم انصرفوا ، ثم انقضى يوم الخميس على اشدّحال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فدعاني رحمه الله وقال: أعلمت ما الذي تجدد ؟قلت:لا، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم وقال إنه اجتمع عندي جماعة المماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ماجرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعا، والرأي أن نلقى مصاف فإن قدّر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدّة بغير القدس ،وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ،فشق عليه هذه الرسالة ،وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكزاد لايدينون للأتراك، والأتراك لايدينون للأكراد ، وانفصل الحال على ان يقيم من أهله مجد

الـديـن بن فـرخشـاه صـاحـب بعلبك ، وكـان رحمه الله : يحدّث نفسـه بـالمقام، ثـم منعـه رأيـه عنه لما فيـه مـن خطـر على الإسلام، فلما قـارب الصبح أشفقـت عليه وخاطبتـه في أن يستريح سـاعة لعل العين تـأخذ حظهـا من النـوم ، وانصرفـت عنـه إلى داري ، فماوصلت إلا والمؤذن قـد أذن ، فأخـذت في أسباب الـوضوء ، فما فـرغت إلا والصبـح قد طلـع ، وكنت أصلي الصبـح معه في غالب الأحـوال ، فعدت إلى خدمتـه ، وهو يجدد الوضـوء فصلينا ، ثـم قلت له: قـد وقع لي واقـع أعرضـه، فأذن لي فيه، فقلـت: المولى في اهتمامه وماقد حمل نفسـه من هذا الأمـر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجـزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجـع إلى الله تعالى، وهذا يـوم الجمعة وهـو أبرك أيـام الاسبوع، وفيـه دعوة مستجـابة في صحيـح الاحاديـث، ونحن في أبـرك موضـع يقدر أن يكـون فيه في يـومنا هـذا ، فـالسلطان يغتسـل للجمعـة ويتصدق بشيء خفيـة بحيـث لايشعر أنـه منـك، وتصلي بين الأذان والإقامـة ركعتين تنـاجـي فيهما ربك ،وتفـوض مقاليـد أمورك إليـه وتعترف بعجزك عما تصديـت له ، فلعـل الله يرحمك ويستجيب دعاءك .

قال :وكان رحمه الله حسـن العقيدة تام الإيمان، يتلقى الأمـور الشرعية بأكمـل انقياد وقبـول ، ثم انفصلنـا ، فلما كان وقـت الجمعة صليـت إلى جـانبـه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيتـه سـاجـدا، وهو يـذكـر كلمات ودموعـه تتقاطر على مصـلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعـةبخير، فلما كان عشيتهـا ونحن في خـدمته على العـادة وصلـت رقعة جـرديك ،وكـان في اليزك يقـول فيها إ ن القـوم ركبوا بـأسرهم ووقفـوا في البر على ظهر، ثـم عـادوا إلى خيامهـم، وقـد سيرنا جـواسيس تكشـف أخبـارهم ،ولما كـان صبيحـة السبـت وصلـت رقعة أخـرى يخبر فيهـا أن الجواسيـس رجعـوا وأخبروا أن القوم اختلفـوا في الصعود إلى القـدس والرحيـل إلى بلادهـم، فذهـب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القـدس، وقالوا: نحن إنما جئنـا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونـه ،وقال الانكلتيز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: ننقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز :إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرونهم به يفعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم والحمدلله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب السلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ،وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر، وكان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وماجرى اثناء ذلك الى ان تم ذلك ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولاينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لايجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها ،ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها ، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان)(١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها ،والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراء ها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الرسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول ان البابا قدوصل الى قسطنطينية في خلق لايعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسول : إني قتلت في الطريق اثني عشر فارساً، ويقول تقدم إلى من يتسلم بلادي مني فإني عجزت عن حفظها ،فلم يصدّق السلطان هذا الخبر ولا أكترث به.

ثم جاء رسول الانكلتيز يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفراً وان من سكن من النصارى والفرنج في البلد لايتعرض لهم ، وأما بقية البلاد .فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد الجبلية لكم ،وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ماعدا الزيارة وإنما يقولون هذا تصنعا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكلتيز لابد له من الرواح إلى بلده.فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الزوّار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد فعسقلان وماوراءها وقراها لابّد من خرابه، فقال الرسول : قدخسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك و عظمتك ، وماسبب اصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية لايطلب أن يكون فيه لارهبان ولاقسوس إلا في القمامة وحدها، فتترك له انت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين

تارة، وبالخشونة أخرى، وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطراره والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكره، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداماً منه، فأجابه السلطان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الوطأة ، ثم عاد الرسول وقال: إن الملك قال: لايمكننا أن نخرب من عسقلان حجرًا واحداً ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك، أما البلاد فخذوها معروفة لامناكرة فيها ،وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء ، وبلغه في العاشر من رجب أن الفرنج خذلهم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت،فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب الى بيت نوبة،ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولدّ وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل ،وركب المنجنيقات،وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الإنظار، وأمر بالنقب فحشي وأحرق ،فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان، فأظلم الأفق ،وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار،ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعان المتسلق فيه

من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل مالحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قد آل الامر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركبلي بمثله، والراجل بالراجل، والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة اشدّ من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة،ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا قماش مانهب من القافلة المصرية ، واستقرّت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان ، وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه أن الانكلتيز الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتدّ عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة ،وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح اخذهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدّو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر وأخذ منهم الحديد، وشدّة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمنا بوصول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانةشمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهويسيرها إلينا ففعلنا ،ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ،وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدّة ولامحصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار، وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له: إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسيرناهم ، ثم اشتدّت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان،وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها، ولم يعلموا أن الانكلتيز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا :خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد، وقد حمل القوم من القلعةوأخرجوا من كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا،ولما عرف السلطان أمر الناس زحف، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى من في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوايجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره، فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ماقال :هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له:بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهمالك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقابين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكلتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأماتشتيته ههنا فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذاأقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء،ثم جاء رسول يقول:كم أطرح نفسي على السلطان وهو لايقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدّو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا،ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكلتيز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوامن أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على ا لموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة،وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمةيحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيءحيث فوتهم الغنيمة،فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكلتيز أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه:«الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيز الا تقتلوه فقد قتله الله،ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقيه الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة،ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة،ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكلتيز قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكلتيز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومائتي فارس على قول المقلل، وان الكندهري تردد بينه وبين الفرنسيسيةفي مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً،فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخي —يعني —الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلاإقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل :إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكلتيز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها،وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةوقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفيع ومماطلة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لايحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأ فضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضررسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعمارتهاوشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية.قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية إلى عكا الى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية:«وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها
ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملك الانكلتيز ماتفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى الأحبة المركيس، والدوك،وملك الالمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإما أن يعافى ،فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة ليثب».

ومماقيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

ياصاح قل للانكلتيز الكلب دع
عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس مافيه لسرجك مطمع
كلا ولا نور الاله بمنطفي
والمسجد الأقصى فعنه تقص من
وقع الدبابيس الأليمة تعرف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصح
واترك متابعة اللجاج المتلف
واعجب لرمح بالرؤوس معمم
واطرب لسيف بالدماء مغلف

قد قلت لما قيل صلح قد جرى
هذا حديث محرّف ومحرّف

سلـــف تـــولى السيـــف عقـــد شروطـــه
أحبـــب بـــه مـــن مسلـــم ومسلـــف
ظنـــوه سلما وهـــو في أرواحهـــم
سلـــم إلى أجـــل لهم متخلـــف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكليتيز هذا في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها:

منعـــت ظبـــاء المنحنـــى بـــأســـوده
وأشـــدّ مـــا أشكـــوه فتـــك ظبـــائه
فعلـــت بنـــا وهـــي الصـــديـــق لحاظهـــا
كظبـــى صـــلاح الـــديـــن في أعـــدائه
ســـل عنـــه قلـــب الانكتـــاز فـــإن في
خفقـــاتـــه مـــا شئـــت مـــن أنبـــائه
لـــولاك أم البيـــت غير مـــدافـــع
ولســـال سيـــل نـــداه في بطحـــائه
وبكـــت جفـــون القـــدس ثـــانيـــة دمـــا
لترنـــم النـــاقـــوس في أفنـــائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك ، وخربت،وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لايعلمه الاّالله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايش يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قله—يعني حصنه—وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه،وكان كماقال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح،ولو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر، فما كان الصلح إلاّتوفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا، وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا

وطرهم من الـزيارة ويرجعوا الى بلادهم،فيأمـن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثـرة من يزور منهـم صعب عليـه ذلك وسير الى السلطان يسـأله منع الزوار، واقترح ان لايـأذن لأحد إلا بعد حضور علامة مـن جانبه او بكتابه، وعلمـت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتمـوا في الحج، فكان يرد في كـل يوم منهـم جموع كثيرة مقـدّمـون وأوساط وملـوك متنكـرون، وشرع السلطـان في اكـرام مـن يـرد ومدّ الطعـام لهم ومباستطهـم ومحادثتهـم، وعـرفهم انكـار الملك ذلـك، وأذن لهم السلطان في الحج وعـرفهم انـه لم يلتفت الى منع الملك مـن ذلك ، واعتذر الى الملك بأن قومـا وصلوا من ذلك البعـد ويُسر لهم زيارة هـذا المكان الشريـف لاستحل منعهـم، ثم اشتدّ المرض بالملـك فرحل ليلة الاربعـاء التاسع والعشرين مـن شعبان، وقيل انه مات ، وسـار هو والكندهري وسائر المقدّمين الى جـانب عكا، ولم يبـق في يافـا إلاّ مريـض أو عاجـز و نفر يسير، ثـم أعطى السلطـان للناس دستـوراً، فسار عسكـر إربل والموصـل وسنجار والحصـن ،وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القـاضي: وكان هـذا مما وقع لي وبـدأت بالاشـارة به في يـوم تتمة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه ، وقعا عظيما ، وأمـر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتـى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق ، وكتـب جرائد بما يحتاج إليه في الطريـق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرهـا إلى البلاد ليعدوها ، ورحـل من النطرون رابع شهـر رمضان وسار حتى أتى مـار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مـريضا بها فوجده قد سار إلى القدس ، وكان قد انقطـع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثـل فعرف بمجيء السلطان إلى مـار صمويل لعيادتـه فحمل على نفسه وسـار حتى لقيـه بذلك المكـان ، وهو أول وصـوله ولم ينـزل بعد ، ونزل وقبـل الأرض وعاد ركب فاستـدناه وسألـه عن مزاجه، وسـارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم .

وقال العماد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس لتفقد أحواله، وعرض رجاله واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه ، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرسة (١٣٢) سوقا بدكاكينها وأرضا ببساتينها ، وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها ، والوقف الكافل بكفايتها ، وعين الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان ، وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها إلى المدينة، وأمر بادارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر، وتأسف على فواته بعد أن قدم مقدماته وأقام شهر رمضان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيرا بتبطيله:« إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولاسلوا عن القدس، ولاوثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة ، فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ويفرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لاتغفر ومن العثرات التي لاتقال» ثم قال: « وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع ، ولامستبعدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسأل مولانا أن لايشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهم ، ولا من غير مهم، يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر، ومن تسلط المقطعين على المتقطعين ما لاينادي وليده، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما مالا زاجر له،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل ،وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر».

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكني به، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعينيّ لا ترقي من العبرات
صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب اسعر نار وجدك كلما
خبت بادّكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى
على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بها في الارض من صخرات

على القبلـــــة الأولى التـــــي اتجهـــــت لها
صـــــلاة البرايـــــا في اختـــــلاف جهـــــات
على خير معمـــــور وأكـــــرم عـــــامـــــر
وأشرف مبنـــــــــــى لخير بنـــــــــاة
ومـــــــازال فيـــــــه للنبيين معبـــــد
يـــــوالـــــون في أرجـــــائه السجـــــدات
عفـــا المسجد الأقصـــى المبـــارك حـــولـــه الـــ
ـــــــرفيع العماد العـــــالي الشرفـــــات
عفـــا بعـــد مـــا قـــد كـــان للخير مـــوسما
وللبر والاحســـــان والقـــــربـــــات
يـــــوافي اليـــه كـــل أشعـــث قـــانـــت
لمولاه بـــــــــر دائم الخلـــــــــوات
خـــلا مـــن صـــلاة لا يمـــل مقيمهـــا
تـــوشـــح بـــا لآيـــات والســـورات
خـــلا مـــن حنين التـــائبين وحـــزنهم
فمـــــن بين نـــــوّاح وبين بكـــــاة
لتبـــك عليهـــا مكـــة فهـــي أختهـــا
وتشكـــو الـــذي لاقـــت إلى عـــرفـــات
لتبـــك على مـــا حـــل بـــالقـــدس طيبـــة
وتشرحـــــه في أكـــــرم الحجـــــرات
لقـــد أشمتـــوا عكـــا وصـــور بهدمهـــا
ويـــــاطـــــا لما غـــــادتهما بشمات
لقـــد شتتـــوا عنهـــا جماعـــة أهلهـــا
وكـــــل اجتماع مـــــؤذن بشتـــــات
وقـــد هـــدمـــوا مجد الصـــلاح بهدمهـــا
وقـــد كـــان مجدا بـــاذخ الغـــرفـــات
وقـــد أخمدوا صـــوتـــا وصيتـــا أثـــاره
لهم عظـــم مـــا والـــوا مـــن الغـــزوات

أمـــا علمـــت أبنـــاء أيـــوب أنهم
بمسعـــاتـــه عـــدوا مـــن السروات
وإن افتتـــاح القـــدس زهـــرة ملكهـــم
وهـــل ثمـــر إلاّ مـــن الـــزهـــرات
فمـــن لي بنـــوّاح ينحـــن على الـــذي
شجـــاني بـــأصـــوات لهن شجـــاة
يـــرددن بيتـــا للخـــزاعـــي قـــالـــه
يـــؤبـــن فيـــه خيرة الخيرات
مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوة
ومنـــزل وحـــي مقفـــر العـــرصـــات(١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بـن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي بها أهل بيـت النبي صلى اللـه عليه وسلـم، وهذه السنـة التي تـوفي فيها العادل قبـل التي خـرب فيها القدس، هـي السنة التي نـزل فيها الفـرنج خذلهم الله على ثغـر دمياط حرسه الله تعالى، وهـي المرة الأولى في زماننا وأقـاموا عليـه إلى أن استولـوا بعـد أن جرى لهم نحـو مما جـرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمـون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استـولوا عليه صلحـا في سنة خمس وعشريـن وستمائة وشرعـوا في بناء طـائفـة منه، ثـم أخرجوا منـه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملـك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسـى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيـه حينئذ بعض شعـراء العصر، هذا الشـاعر هو الصـاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجـــد الأقصـــى لـــه عـــادة
ســـارت فصـــارت مثـــلا ســـائرا
إذا غـــدا للكفـــر مستـــوطنـــا
أن يبعـــث الله لـــه نـــاصرا
فنـــاصر طهـــره أوّلا
ونـــاصر طهـــره آخـــرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد، والله يسهل عودهما إلى أهل الاسلام ، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام .

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعمارته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على مابها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فمازال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم ، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب ، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد ، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية ، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر ، ووصل مع السلطان إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله ، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله .

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ، وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صفد، وصعد إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تبنين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنة، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القُنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي والعشرين من شوّال قيل له : إن الابرنس الأنطاكي بيمند ، مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة ، فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته بالمثول ، وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحد وفارقه، وكانت الأثقال قد انتقلت من قب الياس إلى مرج قلميطيه من البقاع فبات في المخيم ، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج يبوس ، وقد زال البوس ، وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ،ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرّاده ، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنا يوم الاربعاء إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالدين ، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها ، وأبرزت نساء ها ورجالها، فكانت يوم الزينه، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحا ، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فاهتزت بقدومه واختالت،وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسن ، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبار ، ورفعوا أيدي الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريف، واتصل تليد الجد بالطريف، واتسع فضاء الفضائل ، وارتدع جاه الجاهل ، وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وأخذت بحار سماحه في موجها ، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار، وأنال وأنار ، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله ، وأجلى بهائه والناس راتعون في رياض نعمائه ، ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الرّبيع وافتراره، وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والسلطان مشتغل بالصيد والقنص ، منتهز من العمر للفرص ، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وما كان أحسن إلى الحق أصغاه ، وأشرع للباطل ألغاه.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع تشوفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكلتيز المخذول متوجها إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيمارستان انشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها ، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوّال، وانفك بهاء الدين قزاقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام ، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها ، وإشحانها بالرّجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوّال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر ، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنّو أجل السلطان ، فوّدعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتيه التي أعطاه السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان ذلك إلّا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاًعظيما .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها:« حازك البين حين أصبحت بدرا» يقول فيها يعني قصيدته:

وأبيها لولا تغزل عينيها
لما قلت في التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا
صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق المما لك عدلا
مثل ما أوسع البرية برا

ثم قال في آخرها :

نلـــت مـــن الـــديـــن والدنـــــ
ـــــيا فتيهـــا على الملـــوك وفخـــرا

فتمـــل الأعيـــاد صـــومـــا وفطـــرا
وتلـــق الهنـــاء فطـــرا ونحـــرا

يـــا مسر الطـــاعـــات لله أن أضـــ
ـــحى مليـــك على الهنـــاة مصرا

قـــد جمعـــت المجـــديـــن أصـــلا وفـــرعـــا
و ملكـــت الـــداريـــن دنيـــا وأخـــرى

فصل

في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنا ودّعنا عند جينين ، وداع الأبد إلى جنة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، وله مواقف في الجهاد كثيرة معهوده ، ومقامات مشهورة مشهوده ، ووقف السلطان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القاضي ابن شداد : وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه إنما كان واليه عز الدين جرديك، وتوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصف شعبان توفي سلطان بلاد الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بقونيه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفرد كل منهم باقليم ،فضعف بقوّتهم، وعجز بقدرتهم ، وانخفض برفعتهم، فإنه فرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طاعتهم ، واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن غفراس ، فخالفه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفاس ، وقال له: أنا بين يديك عوض الاختيار ، ثم أخلى منه الديار ، ثم أبعد عن خدمة والده خواصه وأولياءه، وأفنى بالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه ،واستخلصه لنفسه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثم جاء به إلى قيصر ية ليأخذها من أخيه ، وأظهر أنه بأمر أبيه، فوجد قليج أرسلان فرصة في خلاصه ، فساق وحده ودخل البلد ونجا من الولد إلى الولد، فعاد ملكشاه إلى قونيه واقصرا دار ملك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ،وجاء بـه إلى قونيـه فدخلهـا ، وحلى عطلها ، ومـات بها، فجلس مكان والده، وقوي على أخيه.

قال : وجـاء الربيع في شهر ربيـع الأول، فكتب إلي نشو الـدولة أحمد ابن نفـاذه أبياتا يدعـوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى، وقـد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعـــا النـــاس للـــذات مشمـــش جلـــق
فقـــد أسرعـــوا مـــن كـــل غـــرب ومشرق
فقـــم يـــا عماد الـــديـــن تحظ بـــأكلـــه
ولا تثـــن عنـــه عـــزمـــة السير تسبـــق
وقـــل حين يبـــدو أصفـــر اللـــون مشرقـــا
ويـــا حسنـــه مـــن أصفـــر اللـــون مشرق
لأكلـــك مـــا يلقـــى الفـــؤاد ومـــا لقـــي
وللنـــوب مـــا لم يبـــق منـــي ومـــا بقـــي
فليـــس ســـوى الحلـــواء في القـــدس مـــأكـــل
ومـــا جلبـــوه مـــن زبيـــب وفستـــق

قال: فعرضت أبياته على السلطان فقال: ماقلت في جوابه ،فأنشدته:

هلمـــوا نســـابـــق نحـــو مشمـــش جلـــق
وثـــم كما نهوى على الأكـــل ننتقـــي
تصفـــر شـــوقـــا لانتظـــار قـــدومنـــا
ومـــن يتعشـــق ذا الفضـــائل يشتـــق
إذا حضرت اطبـــاقـــه غـــاب رشـــدنـــا
لما يتـــلاقـــى مـــن مشـــوق وشيـــق
حكـــى جمرات بـــالفضـــا قـــد تعلقـــت
فيـــا عجبـــي مـــن جمره المتـــألـــق
كـــأنّ نجـــوم الأرض فـــوق غصـــونـــه
فيـــا حيرتي مـــن نجمـــه المتـــألـــق

وجنـــــاتها محمـــــرة وجنـــــاتها
فمـــن يـــرهـــا مثلي يحب ويعشـــق
بـــدت بين أوراق الغصـــون كـــأنها
كـــرات نضـــار في لجين مطـــرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

....

كـــرات نضـــار بـــالـــزمـــرد محدق
تســـاقطهـــا أشجـــارهـــا فكـــأنها
دنـــانير في أيـــدي الصيـــارف تـــرتقـــي
ومشمـــش بستـــان الـــزكـــي بشهـــده
شهـــادتـــه تقضي فـــزكّ وصـــدّق
يقـــول رفيقـــي في دمشـــق تعجبـــا
أمـــالـــك بستـــان مقـــالـــة مشفـــق
فقلـــت إلى بـــاب البريـــد وســـوقـــه
لأمثـــالنـــا تجنـــى بســـاتين جلـــق
ولـــو كـــان لي بـــالسهـــم سهـــم وجـــدت لي
منـــالي بـــأيـــام الثمار ومـــرفقـــي
إذا كنـــت مبتـــاعـــا مـــن الســـوق مشمشي
فمالي إلالـــــذة المتســـــوق
ومـــالي بـــأربـــاب البســـاتين خلطـــة
فيصبـــح في حيطـــانها متسلقـــي
كـــرام وثـــوقـــي في الشتـــاء بـــودّهـــم
ولكنهـــم في الصيـــف ينســـون مـــوثقـــي
ومـــا ثـــم مـــن يجدى ويقـــري ويقتنـــي
ثنـــائي ســـوى المحيـــي الكـــريـــم الموفـــق
وذلـــك يـــوم ليـــس غيره
أمـــن أجـــل يـــوم واحـــد قلـــت لي اسبـــق

على أنني لو قيل بالصين دعوة
أثرت اليها الوعة المتحرق
فإن جئت قبلي جلق فارم منعما
حديثي بنادي المنعمين وحلق
لعل كريما ينتخي لضيافتي
بمشمشة عند القدوم وينتقي
فلا تنس نشوالدين نشوة خاطري
وقل عن صبوحي كيف شئت ورقق
وهات وساعدني وخذ من قريحتي
لطيمة داري من الحمد واعبق

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبي عن الخدمة لايدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد اذن لي السلطان لمهم له ايضا اتفق:

قد صح عزمي على المسير فلا
أبغي مقامي والقلب قد رحلا
امضي إلى دمية مقبلها
أرشف منه المدام والعسلا
مصوّر بل مدّور عجب
ترى به وهو جامد شعلا
ففي قلوب الأشجار منه جذي
وفي ظهور الغصون منه كلا
طلوا بها النضار ظاهره
لباطن في حشاه نار طلا
يخفي إذا ما بدا العيون في
فيك وفيه النوى اذا وصلا

حلى تبر على عـــــــــرائس أغصـــــــــا
ن تشكـــــت مـــــن قبلهـــــا عطـــــلا
حمر حســـــان الـــــوجـــــوه قـــــد لبســـــت
مـــــن خضر أوراقهـــــا لها حلـــــلا
عـــــرائس مـــــن خـــــدورهـــــا بـــــرزت
تحســـــب أشجـــــارهـــــا لها كلـــــلا
حـــــلاوة لا يمـــــل أكلهـــــا
إذا الحلاوات أحـــــدثـــــت ملـــــلا
زهـــــر كشهـــــب السماء راجمة
جـــــن جنـــــاة بقطفهـــــا كفـــــلا
عيـــــونها الـــــرمـــــد في تـــــرقبنـــــا
جـــــا حظـــــة أبـــــرزت لنـــــا مقـــــلا
مـــــاذا التـــــواني وذا التـــــأخـــــر والا
بطـــــاء قـــــدّم مسيرنـــــا عجـــــلا
نغـــــدو خفـــــافـــــا إلى مـــــواسمهـــــا
مـــــن قبـــــل نبلى بصحبـــــة الثقـــــلا
قـــــد انتظـــــرنـــــا مـــــن الخزانـــــة مـــــا
نعطـــــى فـــــأكـــــدى نـــــوّابها البخـــــلا
فـــــإن عـــــدمنـــــا مـــــن عنـــــدهـــــم ذهبـــــا
فـما عـــــدمنـــــا عنـــــه بـــــه بـــــدلا
وكلنـــــا في عـــــوارف الملـــــك النـــــا
صر نـــــرعـــــى ونسلـــــك السبـــــلا

قال: وقلت فيه رباعية:

المشمـــــش لانتظـــــارنـــــا مصفـــــر
والـــــروض إلى لقـــــائنـــــا مفتر
قـــــم نغتنـــــم الـــــوقـــــت فهـــــذا العمـــــر
لا لبـــــث لـــــه فمـــــن بـــــه يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدّم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ،ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفر بن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه :«المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة» .ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين ،وله اقطاع بمائة ألف دينار.

قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيمارستان ، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ،وله أربع عشرة سنة ،وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولايحتاج الى قائد إذا مشى ،ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ،وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحب عليا والبتول وولدها
ولا أجحد الشيخين فضل التقدّم
وابرأ ممن نال عثمان بالاذى
كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم
فلست إلى قوم سواهم بمنتم

وله أيضا في غير ذلك:

وزهـــــدني في جميـــــع الأنـــــا
م قلـــــة انصـــــاف مـــــن تصحـــــب.
هـــــم النـــــاس مـــــا لم تجربهم
وطلـــــس الـــــذئاب إذا جـــــربـــــوا
وليتـــــك تسلـــــم عنـــــد البعـــــا
د منهـــــم فكيـــــف اذا تقـــــربـــــوا

- ٨٨٧٤ -

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه ، والضيوف في فيوض انعامة عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم ، وبرّز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوما، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي ، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ماتمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وادراراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ،وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي ،وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان ،وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين،فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل

الفـرنج إلى ذلـك المكان فحضروا، وكـان له ولـد صغير، وكان كثير الميـل إليه يسمـى الأمير أبابكر، وكان حـاضرا وكان رحمة الله عليه يـداعبه، فلما وقع بصره على الفـرنج ورأى أشكـالهم خاف منهم وبكـى فاعتـذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمـع كلامهم وقال لي: أكلـت اليوم شيئاً، وكـانت عـادتـه رحمه الله هذه المبـاسطة، ثـم قـال:أحضروا لنا أرزا بلبـن ومـايشبه ذلـك مـن الاطعمة الخفيفـة، فـأكـل رحمه الله، وكنت أظـن أن ماعنده شهـوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقـل الحركة عليه، وكان بـدنه ممتلئـا وعنده تكسل، فلما فـرغنا من الطعـام ، قال: مـاالذي عنـدك من خبر الحاج، فقلـت قد اجتمعـت بجماعة منهـم في الطريـق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليـوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقـائهم، وتقدّم بتنظيـف طرقاتهم من الميـاه فإنها كانـت سنة كثيرة الأنداء والأمطـار، وقد سـالت الميـاه في الطرق كـالأنهار، وانفصلت عن خـدمته، ولم أجـد عنده من النشـاط ما أعهده منـه، ثم بكـر في يوم الجمعة فركـب ثم لحقته وقد لقـي الحاج ولم أجد عليه كزاغنـده، وماكان لـه عادة يـركـب بدونـه، وكـان يـوما عظيما قـد اجتمـع فيه للقـاء الحاج والتفـرج على السلطـان معظـم مـن في البلـد ، فاذكـرتـه ذلـك، فكـأنـه استيقظ، فطلـب الكزاغند فلـم يوجـد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بـذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهـة المنيبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد ،وكانت آخر ركباته رحمه الله.

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحة جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ،لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل،وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ،فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبةطبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة،ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ،فغير وعرض عليه ثانيا، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ،والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بالقدح رأس من أحضره،واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا ،وتغيب ذهنه ،ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبة مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا، ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعيرمقدارا صالحاً، وفرح الناس فرحاشديدا فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد،فدخل، ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الارض، وأن اليبس قد تزايد به تزايدا عظيما، وخارت القوّة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، ومانعلم مايكون ومانفعل هذا إلاّ احتياطيا على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنه، وناصر الدين صاحب صهيون ،وسابق الدين صاحب شيزر،وخشترين الهكاري ،ونوشروان الزرزاري، وعلكان ومنكلان ، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكي الفارس ، وأيبك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوتّه، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل،وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك.رأيا، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة،وهو رجل صالح يبيت بالقلعةحتى إن احتضر بالليل، حضر عنده ،وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يوّد لو فداه بنفسه،وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبوجعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)(١٣٤) سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله،ومحل كرامته، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لااله الا هو عليه توكلت)(١٣٥)تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

مـن بعض النـاس أنهم يتمنون فـداء من يعـز عليهم بنفـوسهم، فكنـت أحمل ذلـك على ضرب مـن التجـوّز والترخيـص إلى ذلـك اليـوم، فـإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لوقبل الفداء لفدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعـزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمـراء والمعممين ، وكان يوماً عظيما قـد شغل كل انسان مـا عنده من الحزن والأسف والبكـاء والاستغاثة عـن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلـس عن أن ينشد فيه شـاعر أو يتكلم فيـه قصاص أو وعاظ ،فكـان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكـاد النفوس تـزهق لهول منظـرهم ودام الحال على ذلـك إلى بعـد صـلاة الظهر، ثـم اشتغـل بتغسيله وتكفينـه، فما مكنا أن نـدخل في تجهيـزه ماقيمتـه حبة واحـدةالا بـالقرض حتـى في ثمـن التبـن الذي يلـت بـه الطين، وغسلـه الدولعـي الفقيـه، وندبـت إلى الـوقوف على غسلـه، فلم يكـن لي قـوّة تحمل ذلـك المنظـر، واخرج بعـد صلاة الظهـر في تابـوت مسجى بثـوب فوط، وكـان ذلك وجميع ماا حتـاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفـاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عنـد مشاهدته، وعظم الضجيج حتـى أن العاقل يتخيـل أن الدنيـا كلهـا تصيح صـوتاً واحـداً، وغشي النـاس من البكـاء والعويل ماشغلهم عن الصـلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أوّل من أم بالنـاس القاضي محيـي الديـن بن الـزكي، ثـم أعيد رحمة الله عليـه إلى الدارالتـي في البستان الـذي كان متمـرضا بها، ودفـن في الصفة الغـربية منها،وكان نزولـه في حفرته قريبا من صلاة العصر، ثـم نزل في أثناء النهار ولده الظـافر، وعـزى الناس فيه، وسكـن قلوب النـاس، وكان النـاس قد شغلهم الحزن والبكاء عـن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يـوجد قلب إلا حزينا، ولاعين إلا بـاكية إلا من شاء الله، ثم رجع النـاس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعـد منا أحـد في تلك الليلة إلا أنـا حضرنا وقـرأنا، وجـدّدنا

حـالا من الحزن، واشتغـل ذلك اليـوم الملك الأفضـل بكتب الكتـب إلى أخوتـه وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثـاني جلس للعزاء جلـوسا عـاما وأطلـق باب القلعـة للفقهاء والعلماء،وتكلـم المتكلمون، ولم ينشـد شاعر، ثم انفض المجلـس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلـس السلطان ليلة السبـت سادس عشر صفـر ونحن عنده حتـى مضى من الليـل ثلثه، وهويحدثنا ونحـن نحدثه، ثـم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا بـاحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنـا يوم السبـت وجلسنـا في ايوانـه ننتظر خـروجـه لوضـع الخوان ووجدنـاه قد اغلق بـاغلاق بابه رهنـه، ولم نشعر بما قضاه القـدر وأجنه، وخـرج من خـدمه مـن أخبر بسقمه، وكـان من شرط الأدب أن يخلى لـه موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنـا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيـون، وتراجمت الظنـون ، ودخلنا إليـه ليلـة الأحد للعيـادة ومرضـه في الزيـادة، وفي كل يوم تضعـف القلوب وتتضـاعف الكروب، وانتقـل من دار الفنـاء إلى دار البقـاء في سحـرة يـوم الأربعـاء، ونـابـت الظلماء عـن الضياء، ودخـل قمره ليلـة السابـع والعشرين في السرار، ودجـت مطالـع الأنـوار، ومـات بمـوتـه رجـاء الـرجـال، وأظلـم بغـروب شمسـه فضـاء الأفضال، وغـاضت الأيـادي، وفاضت الأعـادي، ودفن بقلعـة دمشق في مسكنه، ودفن جماع ا لكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملـك الأفضل قبة شمالي الجامع في جـواره، بشباك إلى الجامع لـزوّاره، ونقله إليهـا يـوم عاشـوراء سنـة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنـا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال :ومما قلت رباعية في المرثية:

قـــال الملـــك النـــاصر مـــن كلفنـــي
في الجردبغير شيمتـــــي فما أنصفنـــــي

مـــا يعلـــم أن ذلـــك الملـــك فنـــي
لم يبـــق مـــن الجود إلا كفنـــي

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، ومازال الأفضل يتروّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الافضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأوّل شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية:«أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له : قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الاثر النبوي :«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١٣٦)قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ماصار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ماكان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى :« أفلت الشمس عند الصباح ، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهابها كثير من الأرواح ، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا.وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر».وقال:« وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر» (١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أوّلها:

شمـــل الهدى والملـــك عـــم شتـــاتـــه
والـــدهـــر ســـاء وأقلعـــت حسنـــاتـــه
أيـــن الـــذي مـــذ لم يـــزل مخشيـــة
مـــرجـــوّة رهبـــاتـــه وهبـــاتـــه
أيـــن الـــذي كـــانـــت لـــه طـــاعـــاتنـــا
مبـــذولـــة ولـــربـــه طـــاعـــاتـــه
بـــالله أيـــن النـــاصر الملـــك الـــذي
لله خـــالصـــة صفـــت نيـــاتـــه
أيـــن الـــذي مـــازال سلطـــانـــا لنـــا
يـــرجـــى نـــداه وتتقـــى سطـــواتـــه
أيـــن الـــذي شرف الـــزمـــان بفضلـــه
وسمـــت على الفضـــلاء تشريفـــاتـــه
أيـــن الـــذي عنـــت الفـــرنـــج لبـــأســـه
ذلاً ومنهـــا أدركـــت ثـــاراتـــه
اغـــلال أعنـــاق العـــدا أسيـــافـــه
أطـــواق أجيـــاد الـــورى منـــاتـــه
لم يجد تـــدبير الطبيـــب وكـــم وكـــم
أجـــدت لطـــب الـــدهـــر تـــدبيراتـــه
مـــن في الجهـــاد صفـــاحـــه مـــا أغمـــدت
بـــالنصر حتـــى أغمـــدت صفحـــاتـــه
مـــن في صـــدور الكفـــر صـــدر قنـــاتـــه
حتـــى تـــوارت بـــالصبـــاح قنـــاتـــه
لـــذا المتـــاعـــب في الجهـــاد ولم تكـــن
مـــذ عـــاش قـــط لـــذاتـــه لـــذاتـــه
مسعـــودة غـــدواتـــه محمـــودة
روحـــاتـــه ميمـــونـــة ضحـــواتـــه

في نصرة الاسلام يسهر دائما
ليطول في روض الجنان سناته
لاتحسبوه مات شخص واحد
فمات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبداً إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه
أركاننا وتهدّنا هدّاته
ماكنت أعلم أن طوداً شامخاً
يهوي ولاتهوي بنا مهواته
ماكنت أعلم أن بحراً طاميا
فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من ورديه ولم تزل
محفوظة بوفوده حفاته
من لليتامى والأرامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب
تحضر لرحمة ربه سقياته

وكعـــادة البيـــت المقـــدّس يحزن الـــ
ـــبيت الحرام عليـــه بـــل عـــرفـــاتـــه
مـــن للثغـــور وقـــد عـــداهـــا حفظـــه
مـــن للجهـــاد ولم تعـــد عـــاداتـــه
بكـــت الصـــوارم والصـــواهـــل إذ خلـــت
مـــن سبلهـــا وركـــوبها غـــزواتـــه
وبسيفـــه صـــداء لحزن مصـــابـــه
إذ ليـــس يشفـــى بعـــده صـــديـــاتـــه
يـــا وحشتـــا للبيـــض في اغمادهـــا
لا تنتضيهـــا اللـــوغـــى عـــزمـــاتـــه
يـــا وحشـــة الإســـلام يـــوم تمكنـــت
في كـــل قلـــب مـــؤمـــن روعـــاتـــه
يـــا حسرتـــا مـــن بـــأس راحتـــه الـــذي
يقضي الـــزمـــان ومـــا انقضـــت حسراتـــه
مـــلأت مهـــابتـــه البـــلاد فـــإنـــه
أســـد وإن بـــلاده غـــابـــاتـــه
مـــا كـــان أسرع عصره لما انقضـــى
فكـــأنما سنـــواتـــه ســـاعـــاتـــه
لم أنـــس يـــوم السبـــت وهـــو لما بـــه
يبـــدى السبـــات وقـــد بـــدت غشيـــاتـــه
والبشر منـــه تبلجـــت أنـــواره
والـــوجـــه منـــه تـــلألأت سبحـــاتـــه
ويقـــول لله المهيمـــن حكمـــة
في مـــرضـــة حصلـــت بها مـــرضـــاتـــه
وقـــف الملـــوك على انتظـــار ركـــوبـــه
لهم ففيـــم تـــأخـــرت ركبـــاتـــه
كـــانـــوا وقـــوفـــا أمـــس تحت ركـــابـــه
واليـــوم هـــم حـــول السريـــر مشـــاتـــه

ومـــالـــك الآفـــاق ســـاعيـــة لـــه
فمتـــى تجيء بفتحهـــن سعـــاتـــه
هـــذه منـــاشير المما لـــك تقتضي
تـــوقيعـــه فيهـــا فـــأيـــن دواتـــه
قـــد كـــان وعـــدك في الـــربيـــع بجمعهـــا
هـــذا الـــربيـــع وقـــد دنـــا ميقـــاتـــه
والجنـــد في الـــديـــوان جـــدّد عـــرضـــه
وإذا أمـــرت تجددت نفقـــاتـــه
والقـــدس طـــامحة إليـــك عيـــونـــه
عجـــل فقـــد طمحـــت إليـــه عـــداتـــه
والغـــرب منتظـــر طلـــوعـــك نحـــوه
حتـــى تفـــيء إلى هـــداك بغـــاتـــه
والشرق يـــرجـــو غـــرب عـــزمـــك مـــاضيـــا
في ملكـــه حتـــى تطيـــع عصـــاتـــه
مغـــرى بـــإســـداء الجميـــل كـــأنما
فـــرضـــت عليـــه كـــالصـــلاة صـــلاتـــه
هـــل للملـــوك مضـــاؤه في مـــوقـــف
شـــدّت على أعـــدائه شـــدّاتـــه
واذا الملـــوك سعـــوا وقصر سعيهـــم
رجحـــت وقـــد نجحـــت بـــه مسعـــاتـــه
كـــم جـــاءه التـــوفيـــق في وقعـــاتـــه
مـــن كـــان بـــالتـــوفيـــق تـــوقيعـــاتـــه

قال: ووجـد بخط العماد في حاشية ديوانه كـانت علامتـه «الحمد لله وبه توفيقي»

يـــا راعيـــا للـــديـــن حين تمكنـــت
منـــه الـــذئاب وأسلمتـــه رعـــاتـــه
مـــاكـــان ضرك لـــو أقمـــت مـــراعيـــا
دينـــا تـــولى مـــذ رحلـــت ولاتـــه

أضجـــرت منـــا أم أنفـــت فلـــم نكـــن
نصـــاب لشـــدّة ضجـــراتـــه
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فـــوق السماء عليـــة درجـــاتـــه
فـــارقـــت ملكـــا غير بـــاق متعبـــا
ووصلـــت ملكـــاً بـــاقيـــا راحـــاتـــه
اعـــزز على عينـــي بـــرؤيـــة بهجـــة الـــ
ـــدنيا يـــا بـــى مـــا الكـــرام أبـــاتـــه
لاتقتـــدوا إلاّ بسنـــة فضلـــه
لتطيـــب في مهـــد النعيـــم سنـــاتـــه
وردوا مـــوارد عـــدلـــه وسماحـــه
لترد عـــن نهج الشمات شماتـــه
ولئـــن هـــوى جبـــل لقـــد بنيـــت لنـــا
ببنيـــه مـــن هضبـــاتـــه ذرواتـــه
وبفضـــل أفضلـــه وعـــز عـــزيـــزه
وظهـــور ظـــاهـــره لنـــا سرواتـــه
الأفضـــل الملـــك الـــذي ظهـــرت على الـــ
ـــدنيا بـــزهـــر جـــلالـــه جلـــواتـــه
والـــديـــن بـــا لملـــك العـــزيـــز عماده
عثمان حـــاليـــة لنـــا حـــالاتـــه
والملك غـــازي الظـــاهـــر العـــالـــي الـــذي
صحـــت لاظهـــار العلى مغـــزاتـــه
ولنـــا بسيـــف الـــديـــن أظهـــر نصرة
بـــالعـــادل الملـــك المطهـــر ذاتـــه

وللعماد فيه قصيدة أخرى:
مـــن للعـــلا مـــن للـــذرى مـــن للهـــدى
يحميـــه مـــن للبـــأس مـــن للنـــائل

طلـــــب البقـــــاء لملكـــــه في آجـــــل
إذ لم يثـــق ببقـــــاء ملـــك العـــاجـــل
بحـــــر أعـــــاد البر بحـــــراً بـــــره
وبسيفـــــه فتحـــت بـــلاد الســـاحـــل
مـــــن كـــــان أهـــــل الحق في أيـــامـــــه
وبعـــــزه يـــــردون أهـــل البـــاطـــل
وفتـــوحـــــه والقـــدس مـــن ابكـــارهـــا
أبقـــت لـــه فضـــلا بغير مســـاجـــل
مـــــا كنـــــت أستسقـــــي بغيرك وابـــــلا
ورأيـــت جـــودك مخجـــلا للـــوابـــل
فسقـــــاك رضـــــوان الإلـــــه لأننـــــي
لا أرتضي سقيـــــــا الغمام الهاطـــــــل